درس في الاحصاء.. والإنتاج!

محمد دكروب

.. هل يوحي هذا العنوان بأنّني، هنا، سأتّكئ على أدب غسّان لأتحدَّث، مثلاً، في الاقتصاد، وعلاقات الأرقام؟!

أُصارحكم بأنّني سألجأ إلى بعض الأرقام ودلالاتها.. ولكن لأتحدّث في الفن، وفي الموقف، وفي الجهد البشري الإبداعي، تحديداً.

فقد وُلد غسّان كنفاني في عكّا بفلسطين عام ١٩٣٦ (عام الثورة الشعبيّة العامّة الأولى في فلسطين ضدّ الإنكليز وطلائع الاحتلال الصهيوني).. واستشهد في بيروت عام ١٩٧٢ (حيث كانت فصائل المقاومة الفلسطينيّة قد تجمّعت، بعد الخروج من عمّان، وصار لها حضورُها الفاعل على كلِّ الصّعُد).. فيكون عدد السنوات التي عاشها غسّان: ٣٦.

هذه السنوات الـ ٣٦ لحياة غسّان تتوزّع على ثلاث مراحل.. بالتساوي:

١٢ عاماً.. في فلسطين: من ١٩٣٦ إلى عام النزوح الموجع، ١٩٤٨.

١٢ عاماً.. في السعي وراء الدراسة والعمل بين دمشق والكويت: من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٠، عام الانتقال من الكويت إلى بيروت والاستقرار فيها.

١٢ عاماً.. في بيروت: من عام ١٩٦٠، مع تفتُّح دنياه وتألُّقه، وبدايات التفجّر البركاني لقدراته الإبداعيّة والفكريّة والكفاحيّة.. وصولاً إلى التفجير الاسرائيلي المريع لجسده عام ١٩٧٢.

هذه **المرحلة البيروتيّة** هي التي تعنينا، تحديداً - في مداخلتنا «الإحصائيّة» هذه - ليس لهوسٍ عندنا في حُبِّ بيروت (وهو موجود على كلِّ حال).. بل لأنَّ هذه المرحلة بالذات، هي المرحلة التي يتكثّف فيها الإنتاج الإبداعي كلّه، تقريباً، لغسّان كنفاني.

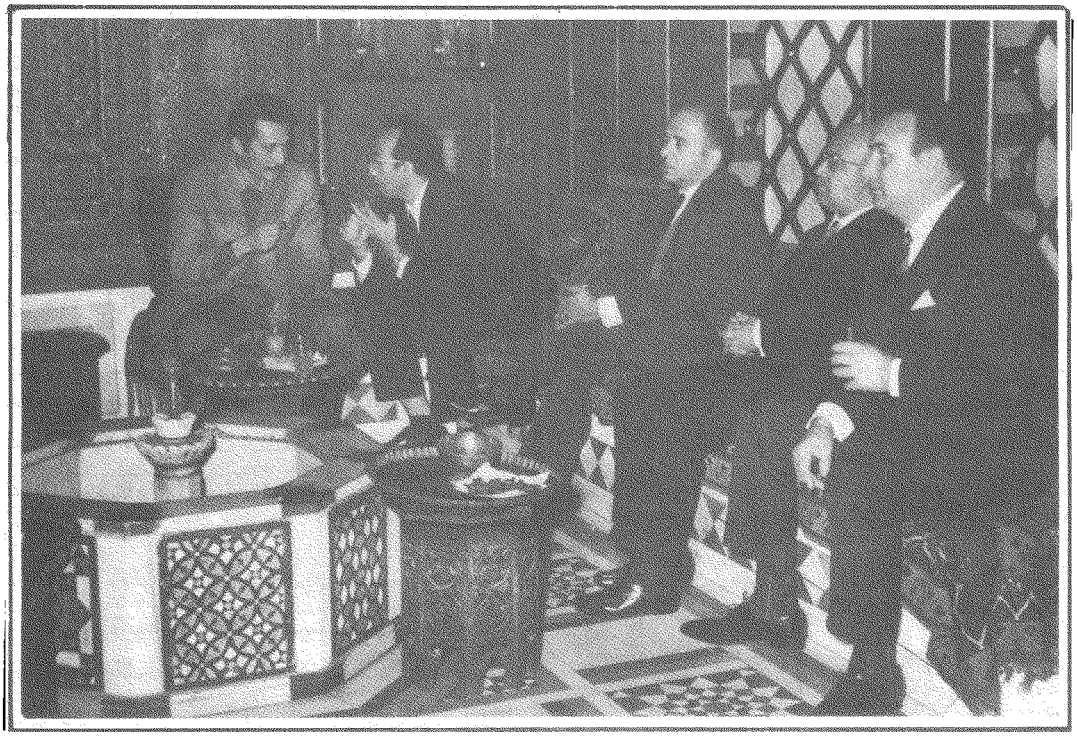

صورة نادرة في بيت الدين في

من اليسار: محمد دكروب، سهيل إدريس، منير بعلبكي

وحتّى لا يُساء فهمنا نقرّر: أنّ النتاج الإبداعي لغسّان، خلال هذه السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة، ما كان يمكن أن يكون لولا جذورُه تلك الطالعة من التراب الفلسطيني المُشْبع بالدم والمأساة، بين ١٩٣٦ و١٩٤٨.. ولولا أعوام التشرّد والضياع والعذاب والنقمة بين ١٩٤٨ و١٩٦٠..

وسوف يستغرب الباحثون في أدب غسّان كنفاني وفكره، - كلّما خطر لهم أن يتنقّلوا بين فضاءات النتاج الإبداعي وأرقام تواريخ صدور هذا الكتاب أو ذاك من كتب غسّان - أنَّ نتاجه الخصب، والشديد التنوّع، والمتعدّد الأشكال، والمتشعّب التجارب.. قد

أنتجه هذاالشّغيلُ، الكادح في أرض الثقافة والفنّ، ضمن المسافة الزمنيّة المحشورة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٢..

فلنتأمّل في مصدر الاستغراب وأسبابه، عبر بعض الأرقام:

- الكتب التي صدرتْ لغسّان من إنتاج هذه الفترة (١٩٦١ - ١٩٧٢) وصلت حتّى الآن إلى ٢٠ كتاباً بالضبط.. أي: بمعدّل كتابيْن، تقريباً، في العام، بين روايات وقصص ومسرحيّات ودراسات أدبيّة.

- هذه الكتب التي أعادت «مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة» إصدارها فيما بعد ضمن أربعة مجلّدات، يصل مجموع صفحاتها إلى ٢٦٤٢ صفحة.

- تُضاف إلى هذا: آلافُ الصفحات (لا تزال حيث نُشرت في الصحف) موزّعة بين مقالات افتتاحيّة، وريبورتاجات اجتماعيّة سياسيّة، ودراسات أدبيّة، ومقالات نقديّة، وتحقيقات ومقابلات، وأحاديث أجراها غسّان، وأحاديث أُجريت معه، ثمّ تلك المقالات الساخرة التي كان ينشرها بتوقيع **فارس فارس**، والتي شكّلت - ولا تزال - طرازاً فريداً في النقد العربي، الأدبي الفنّي الاجتماعي، بأسلوب ساخر ضاحك ظريف، لا يهاود..

ففي هذه السنوات تنقّل غسّان بين رئاسة تحرير عدّة صحف وملاحق ثقافيّة: **المحرّر** اليوميّة.. ملحق أسبوعي باسم **فلسطين**.. الملحق الثقافي لجريدة **الأنوار**.. مجلّة **الحرّيّة**.. ثمّ مجلّة **الهدف** التي أسّسها، وكانت منبَره السياسي الفكري الفنّي الكفاحي الأهمّ.

.. فإذا تصفّحتَ أيَّ عددٍ من أعداد **الهدف**، الصادر بين ١٩٦٩ ويوم استشهاده ١٩٧٢.. فإنّك تجدُ فيه لغسّان، وبتواقيع متعدّدة، مقالاً وتحقيقاً وحديثاً وربّما قصّة ونقداً أدبيّاً ورسماً، أحياناً، وتخطيطاً للملصق..

تضاف إلى هذا كلّه.. دفاترُ **يوميّات** هي بذاتها مقطوعاتٌ فنّيّة فكريّة تبدومشغولة باتقان.. وآلافُ الرسائل إلى عشرات الأصدقاء والصديقات فيها النجوى والبوْح والانطباعاتُ الوامضة والحوارُ مع الذات عبر الآخر.. وتأمّلاتٌ في الكون والحُبّ والموت..

.. فإذا تابعتْ «مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة» اختياراتها من بين كتابات غسّان المتنوّعة المتناثرة هذه (وهو ما نطالبها بالقيام به) فستتجمّع لديها مادةٌ لأكثر من أربعةِ مجلّداتٍ أخرى يكون بينها ذلك المجلّدُ المُنتَظَر الجامعُ لمقالات ذلك الكاتب الظريف، قناعِ غسّان كنفاني، ووسيلته غير المباشرةِ للسخرِ المباشر: **فارس فارس**.

... وبهذا، يصل عدد الكتب التي وضعها غسّان في فترة الـ ١٢ عاماً هذه إلى ما يفوق الأربعين كتاباً، أي: بمعدّل ٤ كتب في العام الواحد.. فقط لا غير!..

إذن: كَمٌّ هائل من الكتابات.. وتشكيلات لا بأس بعددها من أنواع الكتابة الإبداعيّة.. والكثير من اللوحات الزيتيّة، والملصقات الفنّيّة.. أنتجها غسّان كنفاني في هذا العدد المحدود من السنوات: ١٢ عاماً!..

ولكن: ماذا يعني هذا؟

فقد ينبري البعضُ ليقول: ها إنّ البعض من الكتبة والكتّاب يسوّد أيضاً آلاف الصفحات، في عدّة شهور، لا سنوات!.. بحيث لا تستطيع أنت - ولا أيُّ إحصائيٍّ آخر - أن يحصي كتاباتِه المتناثرةَ في كلّ مكان!..

تقول أُمّ سعد: «خيمة عن خيمة تفرق!».

.. وكتابةٌ عن كتابةٍ.. تفرق!

والمسألة ليست فقط في النوع، كأن تقول: هذه كتابات صحفيّة يوميّة عابرة.. وتلك كتابات أدبيّة إبداعيّة، ونقدٌ أدبي، وفكر سياسي..

ذلك أنّ غسّان كنفاني، الفنّان حتّى العظم، والسياسي المناضل حتّى العظم أيضاً، وأكثر.. لم يكن يأخذ العمليّةَ الإبداعيّة مأخذاً سهلاً..

المسألة أنّ كلّ عمل إبداعي لغسّان كنفاني، لم يكن يحمل فقط قولاً نضاليّاً ثوريّاً في شكلٍ فنّي مقبول... بل كان يحمل، بالأخصّ، **اقتراحاً فنّياً جديداً** على صُعُدِ التشكيل والبنية والتركيب وطرائق السرد..

الهمّ التشكيلي عند غسّان لم يكن ليقلّ أبداً، في كلّ عمل بمفرده، عن همِّ **القول** الذي على العمل الفنّي هذا أن يحمله، أو يضيء به، أو يسري في عروقه ونسيجه..

فَلَوْ تأمّلتَ في أنواع التشكيل الفنّي لقصصه ورواياته.. لرأيتَ أنّ لكلِّ عملٍ منها فرادتَهُ التشكيليّة والبنائيّة، بحيث يبدو واضحاً أنّ الهمّ الفنّي - همَّ خلقِ الأشكال وتنويعها - يُقلق غسّاناً ويؤرّقه ويغذيه أيضاً؛ فلا يستقرّ على نمطٍ، ولا يطمئن إلى بناء سردي واحد، ولا يتوقّف عن التجديد والابتكار..

وستلمس أيضاً أنّ غسّاناً، وهو في لجج هذه الهموم التشكيليّة وخضمّها، لا يضيع أبداً - إلّا فيما ندر من التجارب - عن البوصلة الهادية الموصلة إلى.. القارئ..

فالوصول إلى القارئ - بالنسبة لغسّان - كان همّاً نضاليّاً وهمّاً فنيّاً، معاً.. وبتوازنٍ دقيق مدهش..

وتُبرهن لنا كتاباتُ غسّان: أنّ الهدف النضالي السياسي لم يُفسِد عليه إبداعه الفنّي - كما يتوهّم الشكلانيُّون، أو الهاربون حتّى من كلمة نضال سياسي، والعياذ بالله! - بل بالعكس: زوّده بالمادّة الحياتيّة، والنسغ، والحركة، وملحميّة المسار.

وقديماً قال شيخنا الناقد الفنّان **مارون عبود** في وصفِ كتابات **عمر فاخوري** السياسيّة وجمالياتها: «الفنّان يحوّل كلّ الموضوعات إلى عمل فنّي، ولو كان في الجحيم»..

جحيم السياسة، أو جحيم النضال الحزبي اليومي، كما كان حال غسّان...

وفي الجحيم هذا، كان غسّان يتفجّر فنّاً وعملاً.. كالبركان.. ويتدفّق كالنبع..

* * *

وكما تعرفون: كان غسّان في سباق مع الموت.. يريد أن يعطي ما عنده قبل أن يأتيه هذا الموتُ، وكان يعرف يقيناً أنّه يتربّص به، يومياً.. سواءٌ عبْر استفحال المرض الشرس الذي يعاني منه، أو عبر الارهاب الصهيوني الذي يضيق بغسّان وبجميع المناضلين أمثاله..

غسّان، الجميل، المضيء بعينيْه الخضراويْن، المستقيم كالرمح، الباكر أبداً، والساخر أبداً، وعاشق الحياة بكلِّ تلاوينها.. كان يعيش، يومياً، مع الموت..

مرض السكّري يرهق جسده، يُصيبه بين حينٍ وحين بالإعياء والإغماء وبما يشبه الصَرَع... وبين كل نوبة ونوبة، يكتب غسّان شيئاً، وباندفاع بركانيّ محموم..

ينتزعُ الفنَّ من أشداق الموت!

وهنا القيمةُ الإنسانيّةُ الحقيقيّة لهذه الكثافة في الإنتاج الفنّي الإبداعي الفكري، الهائل الغنى، خلال هذه الفترة المحدودة والمحدَّدة بثلث عمره: **١٢ عاماً**...

نصفُ حيٍّ نصفُ ميت ـ يقول عن نفسه في واحدة من يوميّاته: «إنّني مريض، نصف حيّ، يكافح من أجل أن يتمتّع بهذا النصف كما يتمتّع كلّ إنسان بحياته كاملة.. وكلّ المحاولات التي أفتعلها لكي أنسى هذه البديهيّة تقودني من جديد لكي أواجهها.. وبصورة أمرّ...». ويقول: «إنّه ثمن باهظ بلا شكّ: أن يشتري الإنسان حياته اليوميّة، بموتٍ يومي» ـ (**الكرمل**، العدد الثاني، ١٩٨١).

* * *

ثلاث جبهات أساسيّة ناضل عليها غسّان:

ـ جبهة القتال من أجل فلسطين.

ـ جبهة الصراع ضدّ شراسة المرض.

ـ جبهة الإبداع الفنّي، وتنويع أشكاله، وتكثيف الإنتاج فيه، بتسارعٍ يسابق الموت...

.. فأيُّ جهدٍ بشريّ إرادي هائل كانت تتطلّبه هذه الحرب المتعدِّدة الجبهات!..

يصف غسّان في واحدةٍ من يوميّاته، مباراة في كرة القدم بين أطفال الحيّ.. كان يتأمّلهم من شرفته، مندمجاً معهم، فرحاً بالمباراة وجمالها.. «جمال المباراة ـ يقول ـ كان في الجهد المبذول.. لا في مستوى اللعب».

.. فكيف إذن تبيّن لنا: أنّ اللعب الفنّي وصل في رحلته الجاهدة الدؤوبة المكثّفة المتسارعة إلى المستوى الإبداعي الممتاز؟..

غسّان كنفاني كان مولعاً باللعب الفنّي.. وهو ـ بهذا ـ لم يكن يلعب!.. كان يتحاور مع الأشكال، وحتّى مع الصَرْعات.. ومع النقّاد!.. ولعلّه كان يريد أن يؤكّد للنقّاد وللأدباء معاً: أنّ بالإمكان أن توصل **قولك**، بكلِّ عمقه وتعقيداته والتباساته حتّى، وكما هو، إلى القارئ.. وأن تبتدعَ مختلفَ الأساليب والحيل الفنّيّة والتراكيب والأشكال وحتّى اللامعقول.. ولا تضيع عن البوصلة الهادية إلى القارئ.

هذا ما تكشفه لنا قراءةُ الشكل في أعمال غسّان الإبداعيّة.

وهذا ما تكشفه لنا الأرقامُ الاحصائيّة أعلاه:

ـ جمال الجهد البشري، الهائل والمكثّف..

ـ وجماليات التشكيل الفنّي وتنويعاته في كتابات غسّان...

ـ والجمال الإنساني في القول الكفاحي والملحمي الذي يعطينا إيّاه باستمرار، نتاجُ غسّان الباقي..

* * *

إذن: في فترة اثنيْ عشر عاماً فقط كتب غسّان كنفاني هذا الكمَّ الجميلَ القيِّم من الأدب الإبداعي.

وخلال عشرين عاماً مضت على استشهاد غسّان، كتب الباحثون والدارسون والنقّاد، في أدب غسّان كنفاني، يكشفون خصائصَ ومعالمَ ومواصفاتٍ فيه، بما يتجاوز بكثيرٍ جدّاً من الصفحات الحجمَ الذي كتبه غسّان..

ولا نزال نكتب.. وفي البال أشياءُ كثيرةٌ لم تُقلْ بعد..

.. وقد نلتقي ـ إن شاء الله ـ بعد عشر سنوات.. نقيم ندوة دراسيّة في أدب غسّان.. وسوف نكتشف، وقتها، أنّ أشياء كثيرةً في أدب غسّان لا تزال تحتمل قراءاتٍ جديدة، وتفسيراً جديداً، وكشوفاتٍ جديدة..

فإنّ من طبيعة الأعمال الإبداعيّة أنّها تتجدّد عبر الزمن، وتأخذ أيضاً ألوان ذلك الزمن الآتي ونبضه وحركته..

فكيف إذا كان من طبْعِ مُبدعِ تلك الأعمالِ أنّه لم يكن يركنُ إلى شكلٍ محدّد.. بل يظلُّ ممعناً في عالم المغامرة الفنّيّة، والتجريب، وطرح السؤال؟ □